الاغتراب والحنين في شعر أبي فراس الحمداني

م.م. كريم عجيل الهاشمي

جامعة واسط /كلية التربية

توطئة :

أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدوني ، ولد في الموصل سنة (٣٢٠ هـ) فسماه والده الحارث وكناه أبا فراس ، كان فارسا من فرسان العرب ، في الثالثة من عمره قتل والده ، وهكذا نشأ أبو فراس يتيما تحتضنه أمه ، ويعطف عليه سيف الدولة ، وكان قد أسرته الروم مرتين وفداه سيف الدولة . تذكر الروايات أن سيف الدولة مات بعد عودة أبي فراس بسنة واحدة وتولى بعده ولده أبو المعالي فطمع أبو فراس بالحكم ، فأرسل أبو المعالي جيشا لمحاربة أبي فراس فدارت معركة قرب حمص غُلب فيها أبو فراس وسقط عن فرسه وقطع رأسه وحمل إلى أبي المعالي سنة ٣٥٧ هـ . وقد نفح أبو فراس الشعر العربي برومياته التي نظمها وهو أسير بلون عاطفي لم يعرف من ذي قبل . اتشح هذا اللون من الشعر بطابع خاص نتيجة للعوامل النفسية والمكانية والاجتماعية وهو ما يسمى بشعر (الاغتراب والحنين) .وقبل الولوج في الحديث عن الغربة والاغتراب في شعر أبي فراس الحمداني الشاعر الفارس يبدو من المفيد تقديم شيء من الإيجاز عن الغربة والاغتراب بمعناها اللغوي وصولا إلى اصطلاحها الدلالي المتداول . فقد وردت هذه اللفظة في المعجمات العربية بمعنى : النوى ، والبعد ، والنزوح عن الوطن كما وردت بمعنى التنحي عن الناس [١]، فجاء في لسان العرب :((الغربُ : الذهاب والتنحي عن الناس وقد غرب عنا يغرب غربا وغرب ، واغربة ، واغربه نحاه))(٢) وقد تعني البعد والنوى٣ والغربة هي ((مغادرة الوطن طوعاً او كرهاً))(٤) ، أمّا اصطلاحاً فالغربة تعني ((عاطفة تستولي على المرء لاسيما الفنانون فيعيشون في قلقٍ وكآبةٍ لشعورهم بالبعدِ عما يهوون))(٥). وقد شاع استعمال الاغتراب مصطلحاً بعد الحرب العالمية الثانية ، وتعددت دلالاته النفسية والاجتماعية والفلسفية، وإجمالاً يمكن القول : المصطلح يعني انفصال الإنسان عن ذاته ، وعن العالم انفصالاً يصبح معه غير قادر على التناغمِ والانسجامِ لا مع نفسه ولا مع العالم من حوله (٦)، إذ يشعر بوجود إرهاصات في مجتمعه تقف حائلاً أمام تطلعاته

التي ينشدها. ولا يخفى على احدٍ أن الشاعر العربي عُرف بتشبثه بوطنه جاعلاً منه امتداد وجوده ، ومسرح مجده وخلوده ، من خلال أفعاله التي يمارسها بوعي منه أو بلا وعي ، فالشاعر يدرك أن الصراعات التي يخوضها في إطار طموحه لتحقيق خلوده تحقق لذاته ما يتمناه ويناضل من اجله ، فحين يجد الشاعر أن هنالك حائلاً يقف بينه وبين طموحاته ، تفيض قريحته لتسجل معاناته وغربته . لذا جاء هذا البحث ليتتبع نصوص أبي فراس الحمداني لكونه احد هؤلاء الشعراء الذين عانوا هذه التجربة ، التي قسّمناها على قسمين هما:

الاغتراب المكاني :

ترتبط لفظة الغربة بالمكان ، عندما يترك الإنسان مكانه الأصلي لسبب ما ، وينتقل إلى مكانٍ آخر ، فأول ما يسجل في غربة أبي فراس الحمداني غربة الدار ووحشتها ، إذ يبدو أن المكان أول شيء يشدّ الإنسان ويُثير انفعاله ومشاعره ، فشعوره بالبعد عن أوطانه يولّد فيه قلقاً عارماً يبعث في نفسه الشجن . ويمكن ملاحظة ذلك عن طريق التوظيف الإيحائي للفضاء المكاني في النصوص الشعرية لشعراء الغربة ، وهذا التوظيف يبدو بارزاً في روميات الشاعر الفارس أبي فراس الحمداني من خلال معجمه الشعري الذي كان حافلاً بألفاظ الغربة والاغتراب والحنين ، لاسيما انه صاحب تجربة مريرة في أسره ، وقد يُؤثر المكان في طبيعة الزمن كله، فيبدّل من طبائعه تبعاً لنفسية الشاعر التي تلون الزمان بتأثير ذلك المكان وإيحائه بألوان الذات، وهذا مكان الأسر يبدل طبيعة الزمن في عين الشاعر، فيجعل ليله سرمدياً؛ لان هذا المكان يورّث الشاعر مرارة الأسر، وثقل الأحزان . كما وضح ذلك بقوله(٧)

مصـــابي جليل والعـــزاء جميـــل وظنـــــي بـان الله ســـــوف يـديل

جـــراح تمامـــاها الاساة مـخافـــة وسقمـــــان بـاد منـهمـــا ودخيـــل

واســـــر اقاسيـــه ، وليـل نـجومـــه ارى كـــل شـيء غـيرهن يـــزول

تطــول بــي الساعات وهي قصيرة وفــي كـل دهـر لا يسـرك طـول

النص كما هو واضح يفيض بالأسى واللوعة من جراء الأسر الذي وقع فيه الشاعر فهذا الأسر حوَل ليل الشاعر إلى ليل سرمدي دائم . إذ إن الليل أحد ألفاظ المعجم المهمة التي اتكأ عليها الشاعر في بيان غربته التي يمرُّ بها كما في قوله ٨:

لبســـنا رداء الليـــل والليـــل راضـــع إلـــى أن تـــردّى رأســـه بمشـــيب

وبتـــنا كغصـــني بانـــة عابثـــتهما إلـــى الصـــبح ريحـــا شـــمأل وجنـــوب

فكانت الغربة المكانية واضحة المعالم في منجزه الشعري لاسيما أيام وقوعه في الأسر لدى الروم ، فكانت هذه الأماكن محط شوقه وحنينه ، فالشاعر النازح كثيراً ما يلازمه الحنين إلى أماكن صباه ، فالجاحظ يقول : ((فإذا كان الطائر يحنُّ إلى أوكاره، فالإنسان أحق بالحنين إلى أوطانه))(٩)

فكان الشاعر الأمير الذي ناء به الأسر بعيداً عن أوطانه وأحبائه، حين وقع أسيراً فهو يعيد ماضيه مجسداً بالمكان، فيستعير لحزنه صورة جعل فيها للهوان سوقاً، بعد أن عزت عليه تلك المغاني التي قضى فيها أجمل أيام حياته. فهو يرى أن الوقوف على تلك الديار فرضٌ عليه ليوفي حقوق الدار بزياراته إليها، وحقوق العين بسكب الدموع عليها. فقلد أهاجت تلك المواقد المهجورة لواعج الشاعر، وأسالت دموعه ؛ لأنها تدل على وجود ماض لأناس رحلوا، ولذلك قال(١٠):

أتعـــزُّ أنـــتَ علـــى رســـومِ مغـــانِ فـــأقيمُ للعبـــراتِ ســـوقَ هـــوانِ

فـــرض علـــيّ لكـــلِّ دار وقفـــةٌ تقضـــي حقـــوق الـــدارِ والأجفـــانِ

لــولا تــذكَّرُ مــن هويــتُ بحــاجرٍ لــم ابــكِ فيــه مواقــدَ النيــرانِ

ومن أمثلته الأخرى ما جاء في قوله(١١):

قــف فــي رســوم المــستجا ب وحيــي أكنــاف المــصــلى

فالجــوسق الميــمون فالســ ــقيا بهــا فالنــهــر أعلــى

تلــك المــنازل والمــلا عــب ، لا أراهــا الله محــلا

أوطنتهــا زمــن الصــبا وجــعلت منــبج لــي محــلا

حيــث التفــت رأيــت مــا ء ســابحا ووجــدت ظــلا

....

فلئــن خلصــت فــأنني شــرق العــدا طفــلا وكــهلا

ولئــن قتــلت فانــما مــوت الكــرام الصــيد قــتلا

اتكأ الشاعر كثيراً في النص المتقدم على الأبعاد المكانية في تسجيل غربته التي يعانيها من جراء الأسر الذي وقع فيه بأيدي الروم ، ومن هذه المحددات المكانية (أكناف المصلى ، النهر ، المنازل الملاعب ، منبج) فهذه الأماكن استطاع الشاعر توظيفها في نصه لتسجيل إحساسه الحقيقي بالغربة

صـــبور ولـــو لـــم تبـــق منـــي بقيـــة قـــؤول ولـــو ان الســـيوف جـــواب

وقـــور وأحـــداث الزمـــان تنوشـــني وللمـــوت حـــولي جيئـــة وذهـــاب

بمـــن يثـــق الإنســـان فيمـــا ينوبـــه ومـــن أيـــن للحـــر الكـــريم صـــحاب

والحنين ، فكلها أماكن وان كان الشاعر عاشها في زمن ماض إلا أنها ظلت حاضرة في مخيلته الشعرية، فكلما ابتعد عنها زاده الإحساس بالغربة والحنين لها ، والشاعر بتخيره هذه الألفاظ دون غيرها ، إنما اختار ما يلائم شخصيته التواقة شوقا وألماً لأهله وملاعب صباه . فشخصية الشاعر المغتربة تشعر دائماً بالمكان ، الذي يفجر فيها الشحنات العاطفية التي تنطبع في الوعي واللاوعي ولا تُنسى أبداً ، ذلك لحساسية الغربة وقسوتها وحدتها، الأمر الذي نلمسه عندما يتفجر اشتياقاً.

ولقد كان صبر الشاعر وتجلده يعينانه على تحمل أسره الذي ناء به إلى الغربة المكانية كما جاء في قوله (١٢):

النص منذ عتبته الأولى يبدأ بتقديم مشهد مفعم بالحزن والتفجع والاستسلام لخطوب أشعرت الشاعر بالانكسار والهوان ، اذ تطغى الأوصاف المستعارة من معجم ألفاظ الحزن والغربة في النص ، فيجد الشاعر نفسه غريبا بين أصحابه كما في قوله: (من أين للحر الكريم صحاب) ، ثم يمارس الشاعر بعد ذلك تقنية طالما وجدناها في شعره ألا وهي تقنية السرد ، ثم ما يلبث أن يتخلى عنها ليعود لها مجددا حينما يحس بحاجته لذلك ، وهذا الأسلوب خلق جواً رحباً للشاعر في تقديم مشاعره الحزينة ليجعل المتلقي أسير هذا الحزن بل أن المتلقي يشاطره تلك الأحزان والمأساة .

وقد يكون هناك تبادل في درجة التأثير بين المكان ومنْ حلّ به، فإذا بمنْ حلّ بذلك المكان يشعر المتلقي بدلالة ذلك المكان وإيحاءاته، فأبو فراس الأسير المقيد الذي أبعدته صروف الدهر عن أهله

وأصحابه، ووطنه وساحات الوغى، يتناهى إلى سمعه هديل حمامة على غصن شجرة مرتفعة، فتوحي إليه بطعم الحرية حتى أنها لتثير عجبه، كيف هي مع هذا كله. تنوح وهي الطليقة، على حين يكظم هو غيظه، ويحبس أحزانه، ويتمنى أن تكون تلك الحمامة مدركة ما يعانيه من ألم البعد، وقسوة الفراق، علّها تقاسمه تلك المعاناة. فالمكان المرتفع المكشوف أوحى له بالحرية، وهو مما زاد من ألمه البغيض، وجعله يحسُّ بثقل القيود التي تكبله في سجنه، كما في قوله(١٣)

أقــول وقــدْ ناحــتْ بقربــي حمامــة أيــا جارتــا هــل تشــعرينَ بحــالي؟

معــاذَ الهــوى مــا ذُقــتِ طارقــةَ النــوى ولا خطــرت منــك الهمــوم ببــالي!

أتحمــل محــزونَ الفــؤادِ قــوادم علــى غُصُــنٍ نــائي المســافةِ عــال؟

أيــا جارتــا مــا أنصــفَ الــدهرُ بيننــا! تعــالي أقاســمكِ الهمــومَ تعــالي!

تعــالي تــريْ روحــاً لــديّ ضــعيفةً تــردّدُ فــي جســمٍ يعــذبُ بــال!

أيضــحكُ مأســورٌ وتبكــي طليقــةٌ ويســكتُ محــزون وينــدب ســالِ؟

لقــد كنــتُ أولــى منــكِ بالــدمعِ مُقلــةً ولكــنّ دمعــي فــي الحــوادث غــال!

شخص الشاعر بهذا الخطاب المتكرر المتوالي (الحمامة)، فجعلها كالمرأة الجارة التي يقاسمها جارها همومها، وقد أكدت هذا التشخيص الفني الرائع الجميل دعوته إياها مراراً بقوله: (تعاليْ). فكأنها مدركة لما يحمله من هموم لا تقل بحال عن همومها هي، بل قد تزيد عليها. ولذلك استغرب بكاءها– في

تشخيصه لها – ؛ إذ كان يرى نفسه أولى بهذا البكاء منها، وإنما كان الذي يحبس الدمع فلا يفيض فيه، صبره الجميل في الحوادث حتى إنه ليغدو دمعه غالياً لا يهدره في تلك الأحداث النوازل، وإنما يتجمل بالصبر لأن دمعه ليس رخيصاً، بل هو غال، غلاء كرامته ونفسه. نجد في الجانب الدلالي بروز محددات سردية مليئة بالشجن بطريقة أسلوبية عمادها بروز ضمير الأنا وتحولاته اللسانية كما في بنية الاستفهام والنداء ، فقد كانت ذات الشاعر الحزينة المغتربة محوراً موضوعياً بارزاً ، وهذا القلق الذي ينتابه يدلّ بشكل واضح على مدى معاناة الشاعر الداخلية من جراء هذه الغربة ((إذ ينهدم الإنسان من الداخل إذا لم يقبله المجتمع))(١٤). وكثيرا ما نجد أبا فراس يؤطر غربته وحزنه من خلال الاتكاء على بنية المكان كما جاء بقوله وهو في الأسر عند الروم (١٥)

ان في الاسر لصبا دمعه للخد صب

هو بالروم مقيم وله بالشام قلب

مستجدا لم يصادف عوضا عما يحب

فهو في النص السابق حاول الاعتماد على الأبعاد المكانية في تشكيل صورته الفنية التي جسدت شوقه وحنينه إلى بلاده ومسرح مجده ، إذ مثل نفسه بالمقطع الأجزاء من جراء هذا الأسر والغربة ، فجعل من شخصه شيئاً مادياً مقيماً بالروم ، ومنه معنوياً متمثلاً بالقلب المقيم بالشام . ومن أروع الصور التي سجلها الشاعر في أيام أسره قصيدته التي صور بها شوقه وحنينه لامه في الشام التي يقول فيها(١٦)

يا حسرة ما أكاد احملها آخرها مزعج وأولها

عليلة بالشآم مفردة بات بأيدي العدا معللها

تمســـك أحشـــاءها علـــى حـــرق تطـــفأها والهمـــوم نشـــعلها

استطاع أبو فراس أن يصوغ صورة معبرة عن الغربة المكانية التي يعيشها في الروم أيام ما كان أسيراً فيها ، فجعل (الشام) مرتكز صورة الغربة التي نقلها ، فحال أمه كان معادلاً موضوعياً لحاله في هذه الغربة ، لا بل أن حاله اشدّ من ذلك فلعل أمه تعيش بين أهل وأصحاب في كنف سيف الدولة وعلى ارض أهله وأجداده ، كيف به وهو وسط ارض الروم أسيراً .

ثم يتضح الإيحاء المكاني أكثر فأكثر في الأبيات الآتية التي صرح فيها الشاعر باستعارة جميلة، حين ذكر أن هذا المكان كان يضم نساء حساناً، وكان مأوى للضيوف قبيل حلول الفراق، وحدوث التبدل، وكان منيعاً لما فيه من رجال شجعان كنى عنهم بذكر الأسلحة، والخيول الأصيلة، فجاءت يد الزمن التي نشرت عليه حلل الفناء، وهنا استعمل الشاعر استعارة لطيفة؛ إذ جعل للفناء حللاً ، والفناء مقارن للزمن عند الشعراء، وقد دل عليه قوله (١٧):

ولقـــد أراهُ قُبيـــلَ طارقـــةِ النـــوى مـــأوى الحســـانِ ومنـــزل الضـــيفانِ

ومكـــانَ كـــل مُهنـــدٍ ومجـــرَّ كـــ ـــلِّ مثقـــفٍ ومجـــالَ كـــل حصـــانِ

نشـــرَ الزمـــانُ عليـــهِ بعـــدَ أنيســـهِ حُلـــلَ الفنـــاء وكـــلُّ شـــيءٍ فـــأن!

الاغتراب النفسي :

عاش أبو فراس الحمداني وهو أمير من أمراء بني حمدان اغتراباً نفسياً حاداً ، نتيجة لظروف مختلفة وعديدة ، جعلته لكونه شاعراً يصوغها أشعاراً تفيض بالأسى واللوعة ، ((فالشاعر هو أولا وقبل كل شيء إنسان يحس ويتأثر وينفعل فيعبر عن إحساسه وتأثره وانفعاله عن طريق الأدب))(١٨) فلعل من حسن حظ هذا الفارس الأسير انه شاعر ، إذ ان شعره كان متنفسه الذي يتنفس من خلاله .

أرانـــي وقـــومي فرقتنـــا مـــذاهب وان جمـــعتنا فـــي الأصـــول المنـــاسب

فأقصـــاهم أقصـــاهم مـــن مـــساءتي وأقـــربهم ممـــا كرهـــت الأقـــارب

غريـــب وأهلـــي حيـــث مـــا كنـــت حاضـــر وحـــيد وأهلـــي مـــن رجـــال عصـــائب

في النص صور الشاعر أحاسيسه الصادقة تجاه الآخرين ممن حوله ، فتبدو أزمته النفسية واضحة جلية من خلال أحاسيسه بالغربة والوحدة وسط أهله ورجال قومه ، وإحساس مثل هذا يكشف عمق ما كان الشاعر يحس به من غربة وألم ، ولعل موقف أبناء عمه منه جاء نتيجة الخوف من طموح الشاعر اللامحدود ، فقد شكلت ألفاظ الاغتراب المهيمنة الأساسية ، وتكاد تكون هذه الألفاظ عنصرا قاراً في اغلب نصوص الحمداني التي اتسمت بطابع الحزن والاغتراب الذي كان الشاعر يعيشه ، فضلا عن توشحها ببنية صوتية أعانت الشاعر كثيراً في التعبير عن تلك المشاعر اذ اتضحت قيمة الصوت من خلال التضعيف الذي لجأ إليه ومنح النغم الدال على ما تجيش به النفس من حزن وتحسر، فالشاعر قد جاء بفعلين: الأول مضعف (فرّق) ، والآخر غير مضعف (جمع)، ليوضح في الصوت الأول هيمنة التفرق بين الشاعر وأبناء قومه، وليوضح في خفة الثاني الجمع بين أشياء ليس ألا، ولقد عمد الشاعر إلى تقنية أوحت بطبيعة حالته النفسية ألا وهي تقنية التكرار ، الذي سعى من خلالها إلى لفت انتباه المتلقي على امر غاب عنه ، فالشاعر يكرر أسلوب النداء ثلاث مرات ليوحي بعمق ألمه من أبناء عمومته الذين تراخوا عن فدائه حين وقع أسيراً بيد أعدائهم وأعدائه، فهو بهذا التكرار يعاتبهم بمرارة وألم حين يكرر هذا التركيب الإضافي المليء بالنجدة وهو (بني عمنا) ، فيقول: (١٩)

بنـي عمنـا مـا يصـنعُ السيفُ فـي الـوغى إذا فـــلّ منـــه مضـــربٌ وذبـــابُ؟

بنـــي عمنـــا لا تتكـــروا الحـــقّ إننـــا شـــداد علـــى غيـــر الهـــوانِ صـــلابُ

بني عمنا نحنُ السواعدُ والظبا ويوشـــكُ يومـــاً أن يكـــونَ ضـــرابُ

ثم يصور الشاعر لنا إحساس غربته حينما كان أسيرا بقوله(٢٠):

مصـــــابي جليـل والعـــزاء جميـل وظنـــــي بـــان الله ســـــوف يـــديل

تناســـاني الأصـــحاب إلا عصـــيبة ستلـــــحق بـــالأخرى غـــدا وتـــزول

صور الشاعر فيما مرَ من أبيات حالته النفسية التي آل إليها جراء أسره عند الروم وألمه الشديد وحزنه لتنكر أبناء عمه له وهو في الحال التي عليها ، موكلا أموره إلى الله تعالى الذي سيزيل كربه . وقد كان الشاعر عارفا بأدواته اللغوية حينما وظّف ألفاظ معجم الغربة والاغتراب في نصه لاسيما استعماله الفعل (نسي) الذي ألحقه بـ(التاء) لتصبح (تناسى) ليدخلها في معنى القصديّة والإصرار على نسيان الشاعر ؛ لذا راح الشاعر يبحث عمن يعوضه نسيان أهله وأصحابه له بلغة شعرية حملت بين طياتها لمحات فلسفية ليس غريباً أن تصدر عن شاعر فارس كما جاء بقوله(٢١) :

نســيبك مــن ناســبت بــالود قلبــه وجــارك مــن صــافيت لــيس المعاقــب

اشـــد عـــدويك الـــذي لا تحـــارب وخيـــر خليليـــك الـــذي لا تـــــناسب

فالشاعر بهذه اللمحة الفلسفية هو على يقين إن العلاقات الإنسانية أقوى بكثير من علاقات مبنية على القومية أو القبلية . ونجد أبا فراس الحمداني يشعر بالغربة وسط ناس وصفهم بقلة الوفاء وعدم الأمانة كما جاء بقوله(٢٢)

ولمـــا تخيـــرت الأخـــلاء لـــم أجـــد صـــبورا علـــى حفـــظ المـــودة والعـــــهد

سـليما علـى طـي الزمـان ونشـره أمينـا علـى نجـوى صـحيحا علـى البعـد

ولمـا أسـاء الظـن بـي مـن جعلتـه وإيـاي مثـل الكـف نيطـت إلـى الزنـد

حملـت إلـى ظنـي بـه سـوء ظنـه وأيقنـت إنـي فـي الإخـاء لـه وحـدي

فبهذا النص كان أبو فراس يقصد سيف الدولة الذي تأخر في فدائه وانكشفت نواياه في هذا التأخر ومن أمثلة الاغتراب النفسي الأخرى قوله (٢٣)

دع العبـرات تنهمـر انهمـارا ونـار الوجـد تسـتعر اسـتعارا

أتطفـأ حسـرتي وتقـر عينـي ولـم أوقـد مـع الغازيـن نـارا

رأيـت الصـبر ابعـد مـا يرجـى إذا مـا الجـيش بالغـازين سـارا

وقـد ثقّفـت للهيجـاء رمحـي وأضـمرت المهـاري والمـهارا

وكـان إذا دعانـا الأمـر حقّـت بنـا الفتيـان تبتـدر ابـتدارا

بخيـل لا تعانـد مـن عليهـا وقـوم لا يـرون المـوت عـارا

سـتذكرني اذا طـردت رجـال دققـت الـرمح بيـنهم مـرارا

وارض كنـــــت أملاهـــــا خيـــــولا وجـــو كنـــــت ارهجـــه غبـــارا

في النص المتقدم قدم الشاعر صورة معبرة صادقة عن غربته التي يعانيها من جراء منعه من الاشتراك في ساحات القتال الذي تعودت نفسه الطامحة الشجاعة على الخوض فيها ومقارعة الأعداء ، فهذا القرار في منعه من الحرب خلّف في نفسه انكساراً نفسياً لا الخوف من ساحات القتال بل شوقاً لها ، فقرار المنع شكل لديه أزمة حقيقية جعلته يحس بالاغتراب وسط من يعيش بينهم ، إذ تولد مثل هذه الأزمات في الإنسان حالة من القلق النفسي والتوتر ويشعر من يعانيها بالظلم فضلا عن شعوره بالوحدة والاغتراب (٢٤) ومن أمثلة اغترابه النفسي قوله (٢٥)

نـــــديمي الـــــنجمُ طـــــول ليلـــــي حتـــــى إذا غـــــارت النجـــــومُ
أســـــلمني الصـــــبحُ للبلايـــــا فـــــلا حبيـــــب ولا نـــــديمُ

فهذا النص صور حالة الحزن والأسى والإحساس بالوحدة ، وقد كان لصوتي الحاء والباء دلالة كبيرة في الكشف عن حالة الشاعر المنكسرة فثمة علاقة كبيرة بين الصوت المشكل للكلمة ودلالتها التي ينتهي إليها فقد يتداخل الإيحاء الصوتي بالإيحاء النفسي، وذلك لشدة تقارب الموضوعين. فالصوت سواء أكان للفظ، أو لمجموعة ألفاظ قد يوحي بحالة نفسية، وكذلك صوت الحرف قد يوحي بحالة نفسية معينة .

ومن أمثلة اغترابه الأخرى قوله (٢٦)

فياحســـرتا مـــن لـــي بخـــلٍ موافـــقِ أقـــولُ بشـــجوي مـــرةً ويقـــولُ

إنها حسرة الغربة، والوحدة، والذل لعزيز قوم ذلَ بالأسر. فالشاعر يتأوه متحسراً باستعمال لفظة (يا حسرتا) ليوحي لنا بشدة وطأة ما في نفسه على مشاعره، حتى انطلق من هذا الإحساس صيحة تحسر حين نادى الحسرة بصوت عالٍ مناداة البعيد إذا نودي بقوله (يا حسرتا) ، وختم هذه اللفظة بألف المد ليعمق من حدود صوت الحزن، فاراد بهذه الألف التخفيف من شدة ألمه النفسي في دواخل نفسه، وقد مكنه هذا النداء من إفراغ هذا الحزن عن نفسه ، فاللغة بطبيعتها ذات ارتباط كبير بنفس الإنسان فهي توحي بمشاعره وأحاسيسه وتكشف عن حاجاته ((فالألفاظ ترتبط بالدلالات في بعض الحالات النفسية كالكلمات التي تعبر عن الغضب أو النفور والكره، كما قد ترتبط بحجم الأشياء أو أبعادها)) (٢٧)

أسباب اغتراب أبي فراس الحمداني

لعل المتتبع لنصوص الشاعر أبي فراس الحمداني وحياته يكتشف ان ثمة بواعث كانت السبب الرئيس في اغترابه ويمكن إجمالها بالاتي :

١.الحسد والحساد:

يعد الحسد آفة متأصلة عانى منها اغلب الشعراء الذين عرفوا بمكانة اجتماعية وشعرية ، وقد يكون الشعراء أكثر الناس تحاسدا فيما بينهم ، فقد عانى المتنبي من هذه الآفة من كل شعراء البلاط الحمداني ، كما عانى منها الشاعر أبو فراس الحمداني ، نتيجة للمكانة المرموقة التي كان الشاعر يتمتع بها ولطموحاته الكبيرة التي لم تكن تتماشى وتفكير البلاط الحمداني ، لذا فقد خلف الحسد والبغض الذي كان يستشعره الشاعر من أبناء عمه حالة من الاغتراب الاجتماعي في نفسيته وقد صرح عنها علانية بقوله(٢٨):

غريب وأهلي حيث ما كنت حاضر وحيد وأهلي من رجال عصائب

ثم راح الشاعر يعبر عن حقيقة إحساسه بالاغتراب علانية من دون أيما تردد كاشفاً مخططاتهم التي يخططون لها كما يقوله (٢٩):

تمنيـــــتم أن تفقـــــدوني وإنمـــــا تمنيـــتم أن تفقـــدوا العـــز أصـــيدا

أمـــا أنـــا أعلـــى مـــن تعـــدون همّـــة وان كنـــت أدنـــى مـــن تعـــدون مولـــدا

وتتكشف أثار معاناته من الحساد في اغترابه أيام أسره حينما أبطأ أبناء عمه في دفع الفدية لفكاكه من اسر إذ يقول(٣٠):

لمـــن جاهـــد الحســـاد اجـــر المجاهـــد واعجـــز مـــا حاولـــت أرضـــاء وحاســـدي

ولـــم ار مثلـــي اليـــوم أكثـــر حاســـدا كـــان قلـــوب النـــاس لـــي قلـــب واحـــد

....

غفلـــت عـــن الحســـاد مـــن غيـــر غفلـــة وبـــت طويـــل النـــوم عـــن غيـــر راقـــد

الـــم يـــر هـــذا الـــدهر قبلـــي فاضـــلا ولـــم يظفـــر الحـــــساد قبلـــي بماجـــد

أرى الغـــلّ مـــن تحـــت النفـــاق واجتنـــي مـــن العســـل المـــاذي ســـمّ الاســـاود

وعلى الرغم من كل محاولات الشاعر إخفاء انكساره في غربته إلا أن حنينه إلى أخيه أبي الهيجاء سعيد بن حمدان دفعه إلى مكاتبته بأبيات تفيض بالشوق والحنين كما جاء بقوله(٣١)

تفـــر دمـــوعي بشـــوقي اليـــك ويشـــهد قلبـــي بطـــول الكـــربْ

وانـــي لمجتهـــد فـــي الجحـــود ولكـــن نفســـي تـــابى الـــكذبْ

وانـــي عليـــك لجـــاري الـــدموع وانـــي عليـــك لصـــب وصـــب

٢. اعتداده بنفسه :

قد تكون الأسباب متاحة لإنسان مثل شخص الشاعر الفارس الحمداني لان يعتد بنفسه ويترفع ، مفتخرا ببطولاته وأمجاد أجداده من بني حمدان ، فاعتداد الشاعر بنفسه كان مماثلا بعض الشيء لأبي الطيب المتنبي الذي وصف نفسه بالمسيح بين اليهود وبصالح في ثمود

ومنه قوله (٣٢)

والله عنـــدي فـــي الاســـار وغيـــره مواهـب لـم يخصـص بهـا احـد قبلـي

حللـــت عقـــودا اعقـــد النـــاس حلهـــا مواهـب لـم يخصـص بهـا احـد قبلـي

ومنه قوله(٣٣)

إذا مـــا العـــز أصـــبح فـــي مكـــان ســـموت لـــه وان بعـــد المـــزار

حللـــت عقـــودا اعقـــد النـــاس حلهـــا ونـــومي عنـــد مـــن اقلـــي غـــرار

إن الاعتداد بالنفس والفخر بها ، واضحين في البيتين السابقين ، فالشاعر لا يمكث في مكان لا يحقق له طموحه ومبتغاه ، بل يطلب العز حيثما كان غير مبال ، وقد صور تلك الصورة بأيسر الألفاظ ، إذ انه في اعتداده بنفسه يميل إلى الابتعاد عن التعقيد بكل أشكاله لذا جاء وزن قصيدته ينفجر انفجارا

كما تنفجر نفسه ، فهو يميل إلى النغم الذي يهدر هديراً ويقرع قرعا حتى ينساب مع ما يريد ببراءة وعذوبة وسلاسة(٣٤) .

ومنه قوله:

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى طويل نجاد السيف رحب المقلد

حللت عقودا اعقد الناس حلها شديدا على البأساء غير ملهّد

فعلى الرغم من الأسر الذي كان الشاعر يعيشه إلا أن نفسه الطامحة المترفعة لم تنسه صفاته ومناقبه وفروسيته ، فكانت هذه السجايا عاملا ضاغطاً على نفسه من حيث لا يشعر لتشعره بالغربة وسط هذه الناس التي تناست فضله وبطولاته التي سطرها حينما كان حرا ، فقد كان أبو فراس ضحية الكبرياء والمجد الذي خلّد على الدهر مجد الألم ومجد الأنين والحنين والغربة(٣٥) ، مستبعداً أن تلد الأيام بعده رجلاً بصفاته وسجاياه .

ومنه قوله(٣٦)

لا ارتضي ودا ، إذا هو لم يدم عند الجفاء وقلة الإنصاف

ما كثرة الخيل الجياد بزائدي شرفا ولا عدد السوام الضافي

ومكارمي عدد النجوم ومنزلي ماوى الكرام ومنزل الاضياف

الفخر بالنفس والاعتداد بها كان محور النص ومرتكزه ، إلا أن هذه المناقب جعلت الأمير يشعر بالغربة لكونه لم ينل حظه من المكانة التي يتمناها هو ، فهو ينشد الود الذي يدوم بلا انقطاع في مختلف الظروف .ومنه قوله (٣٧) :

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ

فان عشت فالطعن الذي يعرفونه وتلك القنا والبيض والضمّر الشقرُ

وان مت فالإنسان لا بد ميت وان طالت الأيام وانفسح العمرُ

ولو سدّ غيري ما سددت اكتفوا به وما كان يغلو التبر لو نفق الصفرُ

في هذه الأبيات المتقدمة نجد أن أبا فراس الحمداني يفتخر بنفسه ويعتد بها اعتدادا كبيرا ليجعل نفسه بدرا يفتقده أبناء قومه ساعة الجد ، فهو يتعالى على قومه ، ولا يجد من يسد مكانه إذا غاب إلا أن أبناء قومه تناسوه وقت الأسر. وقد أوحى في هذا البيت بشدة ظلمة تلك الليلة التي يصفها بقوله بأنها (ظلماء) ، مع أنها تتسم بالظلمة من دون شك، لكونها ليلةً وليست نهاراً: ولكنه ضاعف من شعور من يتلقاها بظلمتها وعظيم سوادها، عندما وصفها بـ(ظلماء) .

٣. الشعور بالإخفاق وخيبة الأمل نتيجة تأخر الفداء:

شعر أبو فراس الحمداني بالإخفاق وخيبة الأمل ؛ نتيجة تأخر الفداء فأحس بإحساس الغربة ، عند أسره في ارض الروم ، وأبناء عمه يتغافلون عنه متناسين مكانته التي يحس أنها خلفت صدعا كبيرا لا يرأبه إلا شخصه ، فطول الأسر خلف في نفسه شعورا فاجعا كما انه فجر فيه الألم والندم معا(٣٨) ومن أمثلته قوله(٣٩)

أمـــا ليلـــة تمضـــي ولا بعـــض ليلـــة اســـر بهـــا هـــذا الفـــــؤاد المـــفجعا

مـــا صـــاحب فـــرد يـــدوم وفـــاؤه فيصـــفي لمـــن أصـــفى ويرعـــى لمـــن رعـــى

وفـــي كـــل دار لـــي صديـــق أوده إذا مـــا تفارقـــنا حفظـــت وضيـــعا

أقمـــت بـــأرض الـــروم عـــامين لا أرى مـــن النـــاس محزونـــا ولا متصـــنعا

تنكـــر ســـيف الـــدين لمـــا عتـــبته وعـــرّض بـــي تحـــت الكـــلام وقرعـــا

الأبيات تفيض أسى ولوعة وحنيناً بسبب عدم الفداء من قبل أبناء قومه وصحبه الذين أضاعوا الود الذي يكنه لهم ، فلم يحزن عليه احد ولم يبال بغيابه ، بل ينكرون عتبه الذي يعاتبهم به لتأخر الفداء واللامبالاة لأسره . ودليل تأخر الفداء قوله(٤٠) :

لـــــولا العجـــــوز بمنـــــبج مـــا خفـــت أســـباب المنيـــة

ولكـــان لـــي عمـــا سالـــ ـــت مـــن الفـــدى نفـــس أبيـــة

لكـــــن أردت مـــــرادها ولـــو انجـــذبت إلـــى الدنيـــة

وتأخر الفداء من قبل أبناء عمه جعل الشاعر ينهج نهجا آخر إذ جعل الأمل بعودته ليس للقاء أبناء عمه وصحبه ، وإنما يرغب بفك أسره من اجل العجوز أمه التي تنوح من اجله شوقا له ، إذ أن نفسه

الأبية ترفض طلب الفداء لعدم الإنصات له وتلبية مراده الذي طالبهم مرارا وتكرارا إلا إن محاولاته انتهت بالفشل فقرر عدم تكرار طلبه هذا خشية أن يذل

ومن الأمثلة الأخرى قوله (٤١)

لقيـــت نجـــوم الأفـــق وهـــي صـــوارم وخضـــت ســـواد الليـــل وهـــو يهـــول

ولـــــم ارع للـــــنفس الكريمـــــة خلـــــة عشـــية لـــم يعطـــف علـــي خليـــل

ولكـــن لقيـــت المـــوت حتـــى تركتهـــا وفيهـــا وفـــي حـــد الحســـام فلـــول

هذه الأبيات التي يصوغها الشاعر تسجل بحق غربة الشاعر ولوعته لتأخر الفداء الذي لطالما انتظره من ابن عمه سيف الدولة أو من أبناء عمه الآخر، فهذه الأبيات كانت ترجمانا حقيقيا ناقلا لما يحس الشاعر من غربة ولّدت فيه حالة نفسية ظل يعاني من وطاءتها في تقلبات طبعه المختلفة(٤٢)

الإحالات

١. ينظر: المحكم المحيط الأعلى في اللغة ، علي بن سيده ، ج٥ ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٩٧١ .

٢. لسان العرب لسان العرب المحيط : محمد بن كرم الأنصاري ابن منظور ، اعداد وتصنيف يوسف خياط ، دار لسان العرب ، بيروت ، د.ت . مادة غرب.

٣. ينظر :القاموس المحيط ، الفيروز ابادي مادة غرب

٤. قضايا حول الشعر ، د. عبدة بدوي ٦١/١

٥. الاغتراب في شعر المتنبي ، د. فليح كريم الركابي ، مجلة المورد ، ع٢، م٣٦ ، ص٨٥

٦. الإغتراب ، محمود رجب ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د.ت : ١٤ .

٧. الديوان ١٨٢ـ١٨٣

٨. الديوان ٤٥

٩. رسائل الجاحظ: تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل للطباعة، مصر ١٩٦٤م، ٣٨٦/٢.

١٠. الديوان ٣٠٢.

١١. الديوان ١٩١.١٩٢ .

١٢. الديوان ٢٨

١٣. الديوان ١٧١

١٤. مقالات في الشعر الجاهلي ، يوسف اليوسف ط٤ ، دار الحقائق ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ١٨.

١٥. الديوان ٤٨

١٦. الديوان ١٧٨ .

١٧. الديوان ٣٠٢.

١٨. الشخصية والطبيعة في الشعر القديم ، عبد الفتاح نافع ، مجلة المورد ، م٣٦ ع٢ ، لسنة ٢٠٠٩ ، ٩١

١٩. ديوان أبي فراس: ٢٦.

٢٠. الديوان ١٨٢

٢١. الديوان ٤٨

٢٢. الديوان ٥٨

٢٣. الديوان ١٠٠ .١٠١

٢٤. ينظر : اصول علم النفس ، د. احمد عزت راجح ، جامعة الاسكندرية ، ط١ ، (د.ت) ٤٤٧ .

٢٥. الديوان ٢٥١

٢٦. الديوان ٢٣٣.

٢٧. دلالة الألفاظ: د. إبراهيم أنيس ط٢ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ م. ٧٠.

٢٨. الديوان ٤٨

٢٩. الديوان ٧٧

٣٠. الديوان ٦٨

٣١. الديوان ١٤٣

٣٢. الديوان ١٧٠

٣٣. الديوان ٦٦

٣٤. ينظر : الفنون الأدبية عند العرب : فن الفخر وتطوره في الأدب العربي ، ايليا الحاوي ، منشورات دار الشرق الجديد ، ١٩٦٠ ، ١٤١.

٣٥. ينظر : الموازنة بين الشعراء ، زكي مبارك ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط٢ ١٩٣٦ ، ٣٢١ .

٣٦. الديوان ١٥٤

٣٧. الديوان ، ٨٧ . ٨٨

٣٨. ينظر : في النقد الأدبي ، ايليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ٠ د.ت) ٢٧١/٣

٣٩. الديوان ١٤٥ .١٥٧

٤٠. الديوان ٢٣٢

٤١. الديوان ١٨٤

٤٢. ينظر : الفنون الادبية عند العرب : الفخر وتطوره في الأدب العربي ، ايليا الحاوي ، منشورات دار الشرق الجديد ، ط١ ، ١٩٦٠ ،١٤٤

المصادر والمراجع:

- أصول علم النفس ، د. احمد عزت راجح ، جامعة الإسكندرية ، ط١ ، (د.ت) ٤٤٧ .
- الاغتراب ، محمود رجب ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د.ت : ١٤ .
- الاغتراب في شعر المتنبي ، د. فليح كريم الركابي ، مجلة المورد ، ع٢، م٣٦ ، ص٨٥
- دلالة الألفاظ: د. إبراهيم أنيس ط٢ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ م. ٧٠.
- رسائل الجاحظ: تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل للطباعة، مصر ١٩٦٤م، ٣٨٦/٢.
- الفنون الأدبية عند العرب : فن الفخر وتطوره في الادب العربي ، ايليا الحاوي ، منشورات دار الشرق الجديد ، ١٩٦٠ ، ١٤١.
- الفنون الادبية عند العرب : الفخر وتطوره في الأدب العربي ، ايليا الحاوي ، منشورات دار الشرق الجديد ، ط١ ، ١٩٦٠ ،١٤٤
- في النقد الادبي ، ايليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ٠ د.ت) ٢٧١/٣
- قضايا حول الشعر ، د. عبدة بدوي ٦١/١
- القاموس المحيط ، الفيروز ابادي مادة غرب
- لسان العرب لسان العرب المحيط : محمد بن كرم الأنصاري ابن منظور ، اعداد وتصنيف يوسف خياط ، دار
- المحكم المحيط الأعلى في اللغة ، علي بن سيده ، ج٥ ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٩٧١ .
- مقالات في الشعر الجاهلي ، يوسف اليوسف ط٤ ، دار الحقائق ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ١٨.
- الموازنة بين الشعراء ، زكي مبارك ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط٢ ١٩٣٦ ، ٣٢١ .